

الأدب الجزائري الحديث بين النشأة والتطور

Modern Algerian literature between origin and development

لخضر دين * ، دكتور، جامعة بلحاج بوشعيب – عين تموشنت

dinelakhdar9@gmail.com

ملخص:

لئن كان الأدب الجزائري في العصر الحديث مصدر اهتمام لدى الكثير من الباحثين والدارسين داخل الجزائر وخارجه، حيث ألقت حوله عدد هائل من المؤلفات التي تدل على قيمته محليا وعربيا وقاريا وحتى عالميا، فقد سعت هذه الدراسة إلى الكشف عن جانب من الجوانب المشرقة في الأدب الجزائري الحديث من خلال الكشف عن مفهومه ونشأته وأهم الأشياء من مؤثرات وتيارات وعوامل أسهمت في تشكيله .

كلمات مفتاحية: الأدب؛ الأدب الجزائري؛ الحديث؛ الأدب الجزائري الحديث؛ نهضة ونشأة الأدب الجزائري الحديث.

Abstract:

While Algerian literature in the modern era is a source of interest for many researchers and scholars inside and outside Algeria, where a huge number of books have been written around it that indicate its value locally, Arably, continentally and even globally, this study has sought to reveal one of the bright aspects of modern Algerian literature by revealing its concept, its origin, and the most important things of influences, currents and factors that contributed to its formation.

Keywords: Literature; Algerian literature; modern; modern Algerian literature; renaissance and emergence of modern Algerian literature.

1. مقدمة:

نال الشعر الجزائري في العصر الحديث حظا وافرا من الدراسة والتحليل، فالمكتبة النقدية في هذا المجال ثرية بدراسات جادة؛ تتعلق بالأعلام والرؤى ومناهج الدراسة بالإضافة إلى التوثيق لفترة دقيقة من فترات تطور الأدب الجزائري الحديث؛ من خلال ما تقدم، سنتناول في هذا المقال نشأة الأدب الجزائري وما صاحبها من ظروف أثرت في طبيعة هذا الأدب بالإضافة إلى الكثير من النقاط المهمة التي لا تخرج عن السياق المعرفي لتاريخ هذا الفن وتياراته ومؤثراته وظروفه وأهم خصائصه.

فكيف نشأ الأدب الجزائري في العصر الحديث؟ وكيف تطور؟ وما هي أهم التيارات والمؤثرات والعوامل التي أسهمت في تشكله؟

2. الأدب الجزائري مفهوما ونشأة:

1.2. مفهوم الأدب الجزائري الحديث:

يعد الأدب الجزائري الحديث واحدا من بين أهم الآداب التي ظهرت بالقطر العربي، حيث ألح جمع من الدارسين أن يضعوا له تعريفا خاصا به حتى لا يختلط مع غيره من الآداب، وعنه قال "محمد مهداوي": "الأدب الجزائري الحديث جزء من الأدب العربي الحديث، لأن هذا الأخير يتكون من مجموع آداب الأقطار العربية (...) كذلك الحال بالنسبة لأدبنا العربي يجمع أشتاتا متباينة في العادات والتقاليد والعمران، وهذا التباين بين أدب وآخر هو ما يسمى في مجال الأدب بالمحلية، وهذه المحلية هي التي جعلت الهم العربي في العصر الحديث بوجه خاص يختلف باختلاف ظروف البلد وقدراته (...)".¹

ولأنه جزء من الأدب العربي فهو لم يختلف مع الآداب العربية الأخرى من الناحية الأسلوبية والتعبيرية والتصويرية، ولكنه اختلف عنها في نقل الموضوعات والقضايا التي طرحها، لأن هموم الأديب تختلف من أديب إلى آخر، وهذا ما جعل "محمد مهداوي" يحكم عليه قائلا: "الأدب العربي في الجزائر واحد من الروافد التي تصب في نهر آداب اللغة العربية، قد لا يختلف عن آداب الشعوب العربية الأخرى، من حيث الأسلوب والتعبير والتصوير،

ولكنه يختلف عنه في الموضوعات وذلك أمر طبيعي، لأن هموم الأديب الجزائري تختلف عن هموم الأدباء الآخرين في الأقطار العربية، ومن ثمة طبع الأدب الجزائري بطابع النضال، خاصة الأدب الذي نشأ أيام الاستعمار الفرنسي منذ بداية الاحتلال عام 1831م إلى نهاية الاحتلال عام 1962م.²

وإذا كان العنوان العريض -أي الأدب الجزائري الحديث- يحمل في ثناياه مصطلح الحديث الذي أصبح قضية تثار في الوسط البحثي والتي تناقش حولها عدد هائل من الباحثين حتى يصلوا إلى الفرق بينه وبين المعاصر محددين الإطار الزمني لكلا المصطلحين، فهي هي "كريمة محاوي" تورد رأيين مختلفين عن الحديث والمعاصر في الأدب الجزائري في خضم حديثها عن مفهوم الأدب الجزائري الحديث قائلة: "هو الأدب الذي ينتهي إلى المرحلة الممتدة بين 1830 ونهايات القرن العشرين، ومن الدارسين من يجعله بين تاريخ احتلال الجزائر من طرف فرنسا إلى غاية الستينيات من القرن العشرين، ويعد ما بعد هذه المرحلة أدبا معاصرا، على اعتبار أن عددا من أدباء المرحلة الأخيرة ما زال معاصرا، لكن الأدب الجزائري الذي ينتهي إلى بدايات العصر الحديث قليل جدا بل نادر والسبب الأول هو الاستعمار الذي كان هدفه الأساسي محو الأمة الجزائرية من الوجود واستبدالها بأمة فرنسية على غرار ما فعلته كثير من الدول الاستعمارية آنذاك".³

2.2 نشأة الأدب الجزائري في العصر الحديث:

أكد كثير من الباحثين بأنه لا يمكن الحكم الجازم على نشأة فعلية لأي الأدب كان، لأن الآراء تتضارب والأفكار تختلف والمشارب تعدد، وهذا الرأي دأب عليه "محمد مهداوي" حين تحدث عن الآراء التي قيلت عن الأدب الجزائري الحديث قائلا: "إن عمر الأدب لا يقاس باليوم والشهر أو بالسنة، فلا نستطيع أن نحدد بدقة متناهية ميلاد أو نشأة الرومانسية في الأدب العربي، أو الشعر الحر أو القصة القصيرة أو المسرحية، كما نحدد عمر الإنسان، والسبب في ذلك أن الظاهرة الأدبية نتاج فكري اجتماعي معقد، تنشأ من خلال تفاعل

عوامل كثيرة داخل المجتمع الإنساني، لذلك من الطبيعي أن تتعدد الآراء حول بداية أو نشأة الأدب الحديث في الجزائر وفي غير الجزائر (...).⁴

1.2.2 الأدب الجزائري قبل النهضة:

يجمع جل الباحثين بأن الأدب الجزائري بصفة عامة قد مر بنفس المراحل التي شهدتها مختلف الآداب العربية منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا، وفي هذا الصدد يقول "أبو القاسم سعد الله": "والواقع أن الحديث عن الأدب الجزائري يشبه إلى حد كبير كل حديث عن الأدب العربي بصفة عامة في كل بيئة من بيئاته الوطنية، فقد عاش هذا الأدب نفس الظروف والمشكلات التاريخية والفكرية التي عاشها الأدب العربي، وكانت صلة الجزائر بأوروبا -بحكم موقعها وسياستها- من أسبق الصلات التي نشأت بعد ذلك في الشرق العربي، فاستفادت الصلة تجاريا وحربيا وإداريا، ولكنها فيما يبدو لم تفد شيئا من ذلك فيما يتعلق بفكرها وحضارتها وفنها وثقافتها، فبقي هذا الجانب محافظا راكدا قديما إلى أن جاء الاحتلال الذي لم يكن صدمة لجميع القيم السائدة في البلاد، بل كان بالإضافة إلى ذلك عامل تخريب وبعثرة لكل القيم الفكرية رغم جمودها وركودها وقدمها."⁵

1.1.2.2 مصطلح النهضة الأدبية في العصر الحديث:

لمصطلح النهضة أهمية كبيرة ودلالة معنوية في اللغة العربية، إذ فيه دعوة شديدة الإلحاح لنقل الفاعلية الفردية والمجتمعية معا، أو انتقالها من حال سابقة غير مناسبة للظروف إلى حال لاحقة ممكنة ومنسجمة مع الظرف، واستحضار للقدرة من أجل القيام بأعباء النهوض ومستلزماته، استجابة للعلاقة المفترضة أو المرغوب بها مستقبلا، ولذلك انحصرت معانيها اللغوية في القوة والحركة والارتفاع والتجدد، يقول صاحب معجم "الرائد" "جبران مسعود": "نهض: الطاقة، القوة، الحركة، الارتفاع بعد الانحطاط، والانبعاث بعد تأخر وركود."⁶

وعلى هذا الأساس، فالنهضة الأدبية العربية في العصر الحديث لم تأت هكذا، ذلك لأن الأمة العربية والإسلامية مرت بفترة من الزمن شعر أهلها بالضعف والجمود والركود، حتى أن

كلمتها تشتت وأصبحت غير قادرة على مواصلة السير في الطريق الحضاري الذي رسمه الخلف في جميع المجالات؛ لذلك يمكن الحكم بأن "الأدب العربي -شعره ونثره- نهض في هذا العصر في موضوعاته وأفكاره وأساليبه ولغته، فصار أدبا قويا مزدهرا يختلف في شكله ومضمونه عن الأدب في العصر العثماني الضعيف المتهاك".⁷

وأما عن الحدود الزمنية للنهضة العربية الحديثة فقد اختلف الآراء بين من يرى أن قيامها بدأ مع الحملة النابولونية على مصر وما أحدثته من زلزلة في الجوانب الفكرية والثقافية والحضارية وغيرها في الوسط الاجتماعي وهذا الأرجح، وممن ساروا على ذلك "أحمد حسن هيكل" الذي قسم فترة النهضة إلى فترتين: "فترة اليقظة، وفترة الوعي".

- "فترة اليقظة: وكانت من بداية الحملة الفرنسية عام 1213هـ/1798م حتى سنة 1863م (...). ويمكن تقسيمها إلى:

أ/- الحملة الفرنسية: فقد جاءت الدولة برئيسها ومجلس الشعب والنواحي العلمية المتطورة فيها وصحافتها، فألقت بكاھلها وأثقالها على مصر، فرأى المصريون حكما جديدا ومجلسا للشعب، ورأوا الصحافة والعلم الحديث، فالحملة المصرية قامت على النواحي العلمية والمخترعات الحديثة(...). فكان هذا عاملا من عوامل اليقظة في مصر، حتى استولى محمد علي باشا على السلطة عام 1805م.

ب/- محمد علي باشا: وهو العصر الثاني لفترة اليقظة، حيث تطلع محمد إلى بناء دولة قوية وجيش صامد يقف في وجوه الأعداء(...). وقام بإنشاء المدارس العامة، واستقدم المدرسين من أوروبا ثم كون من المصريين الذين تعلموا التدريس والتكنولوجيا، وبالتالي استغنى عن المدرسين الأجانب، كما قام بإرسال البعثات إلى الخارج(...). وكان من أشهرهم رفاعة الطهطاوي الذي أرسل مع المبعوثين إماما لهم، فدفعته الرغبة في العلم إلى تحصيل ما حصله إخوانه وزاد عليهم(...)."⁸

- "فترة الوعي: من سنة 1863 حتى سنة 1882م عندما احتلت بريطانيا مصر(...). وكانت في عهد إسماعيل الخديوي الذي كان ممن بعثه محمد علي إلى فرنسا فأعجب بالغرب كثيرا، وأراد

أن يجعل مصر مثل أوروبا، فأعاد فتح المدارس، وقام بإرسال البعثات العلمية حتى بلغت أكثر من 172 بعثة، وأنشأ كلية الحقوق وجعلها باللغة العربية، وأنشأ دار العلوم عام 1871م برئاسة علي مبارك (...) كما أنشأ أول مدرسة للبنات عام 1873م (...) كما قام بافتتاح مكتبة دار الكتب (...) فكانت مصر رائدة النهضة العربية بنشرها التعليم، إلا أن إسماعيل على ما قام به من جهود جبارة أكثر من البذخ والإسراف (...) فعزل إسماعيل وتولى ابنه الخديوي توفيق، وقام أحمد عرابي بالثورة المعروفة التي لم يسفك بها دماء، وتدخلت حينئذ بريطانيا وقامت بنفي كل من تدخل في الثورة واشترك فيها (...) وكان بداية الاحتلال البريطاني لمصر عام 1882م وحاول الإنجليز إغلاق المدارس وهدم الحضارة الناشئة (...) ⁹.

وفي المقابل يرى آخرون أن النهضة العربية الحديثة ليس لها حدود زمنية، وما كان قد قيل بأنها تبدأ من الحملة الفرنسية على مصر تنفيد وتكذيب، وممن احتجوا بهذا "ويليم الخازن" بقول: "ليس للنهضة العربية الحديثة حدود واضحة متفق عليها، بل هي تيار متصل، بعيد الحدود، كثير الروافد، يختلف اتساقا وتأثيرا وأهمية في البلدان التي ورثت حضارة العرب، وانتظمتها لغة الضاد وشكلت العالم العربي الحديث، والنهضة الأدبية مرتبطة بالنهضة الاجتماعية والثقافية، وبمدى انفتاح البيئة التي تعيش فيها على سائر البيئات قريبة أو بعيدة، فالنهضة الأدبية وجه من وجوه الحضارة وعنصر أساسي من عناصرها، تفاعلت معها وكانت رافدا من روافدها المتميزة (...) وبذلك بدا لنا أن نقول: "إن الرأي المتناقل يردده الخلف عن السلف بأن عصر الانبعاث، أو اليقظة العربية، أو النهضة الحديثة، قامت مع حملة بونابرت على مصر (1798) هو رأي به الكثير من التسرع والإجحاف بحق القرون والمراحل السابقة لهذه الحملة، خصوصا في لبنان." ¹⁰.

2.1.2.2 أسباب تأخر النهضة الحديثة في الجزائر:

يتحدث "محمد مهداوي" عن الأسباب التي أدت إلى تأخر النهضة الأدبية في الجزائر عن مثيلاتها في بعض الدول العربية يكمن في أن الجزائر عانت ويلات الحكم الظالم من قبل العثمانيين وعلى وجه الخصوص الأتراك، أيضا الاستعمار الفرنسي الغاشم الذي سعى إلى

تدمير الثقافة الجزائرية بأكملها وتبديلها بالفرنسية، حيث يقول: "كانت الجزائر تحت سيطرة الحكم العثماني (التركي) تعاني من ضعف اللغة العربية التي حاربها الأتراك، ومنعوا استعمالها في الدواوين الرسمية، وجعلوا مكانها اللغة التركية لغة العلم والإدارة، فتناقصت العربية واقتصرت في الزوايا والكتاتيب القرآنية واقتصرت مهمتها على الشؤون الدينية، بعد أن كانت لغة دين ودنيا معا(...). ونظرا لهذا السبب جفت القرائح ونضب نبع الإبداع الأدبي، كما ضاقت سبل الرزق أمام الجزائريين(...). إذا فالعهد العثماني في الجزائر على الرغم مما شاع فيه من تقدم في العمران وازدهار البحرية، كان وبالا على الأدب العربي في الجزائر، وامتدادا طبيعيا لعصور الانحطاط. ولم ينج الشعب من مخالب الأتراك حتى وجد نفسه بين أنياب الاستعمار الفرنسي(...). وهكذا ظل الأدب العربي في الجزائر في جمود رهيب وانفصام عن العصر، وعن الحياة الفكرية والحضارية حتى ظهور الصحافة الوطنية العربية منذ مطلع القرن 20م وحينها جاءت جمعية العلماء المسلمين التي غيرت حال الأدب والثقافة، وكونت جيلا من الشباب المثقف بثقافة السلف الصالح، الذي انطلق في عملية الإبداع الأدبي(...)." ¹¹

وعلى الرغم مما قيل في الاستعمار بأنه أتى إلى الجزائر لكي يطورها ويغيرها إلى الأفضل من جميع النواحي وبخاصة الثقافية منها، إلا أننا ألفينا أن هذه الفكرة خاطئة مزيفة تزييفا لا نظير له، ذلك لأن الاستعمار حاول "طمس هذه الثقافة وتغيير شخصيتها، كما حاول غزو عقول الجزائريين بثقافته، وهي دخيلة عليهم، ولا شك أن الاستعمار كان أقوى، فاستطاع أن يحقق الكثير من أهدافه(...). ولم يبق من معالم التراث سوى معالم الدين والقرآن والمدائح، وهو الشاعر الشعبي(...). ولم يرحم الاحتلال خزائن الثقافة، فنهب جنوده الكثير من المخطوطات العربية القديمة، وأتلف بعضها، وذلك بشهادة رحالة ألماني هو موريس قاغرن (maurice wagner) (...) وذكر قاغرن في كتابه "رحلات في ولايات الجزائر" أن جنود فرنسا قد أتلّفوا عددا كبيرا من المخطوطات النفيسة التي عثروا عليها في دار ابن عيسى بقسنطينة، وتساءل لماذا يحرم الجزائريون من هذه المخطوطات التي تزودهم بالمعرفة؟(...)." ¹²

وتحدث "أحمد طالب الإبراهيمي" مطولا عن الاحتلال معتبرا أنه "تخريب للإرث الثقافي في الجزائر قائلا: "فبعد أن استطاع المستعمر إيجاد شعب عاجز عن إعادة صورة ماضيه وبعد أن أطفأ فيه وعيه لقيمته وقيمه، ثبت في ذهنه وبواسطة المدرسة الفرنسية عادات جديدة في التفكير والشعور والعمل" (...) ويقول الكاتب أيضا: "إن فرنسا لم تكتف بتعليمهم لغتها وترسيخ ثقافتها في ذهنهم ونفوسهم، بل علمتهم أيضا أنه ليس هناك شيء خارج هذه الثقافة، وأن تاريخ الجزائر يبدأ سنة 1830 (...)".¹³

هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد كان من أخطر الأسلحة التي استخدمها الاحتلال الفرنسي في وجه الجزائريين لطمس ثقافتهم هو في تغريب اللغة العربية في أواخر القرن 19م، حتى أن "أحمد شوقي" حين عاد إلى القاهرة بعد زيارته للجزائر سنة 1893 قال قولته المشهورة: "ولا عيب فيها (أي الجزائر) غير أنها مسخت مسخا، فقد عهدت مساح الأحذية يستنكف النطق بالعربية، وإذا خاطبته بها لا يجيبك إلا بالفرنسية".¹⁴، وممن سار على هذا الأمر أيضا أحد الصحفيين المصريين هو الآخر حين زار الجزائر سنة 1901 راعه وضعها العلمي وتقهر اللغة العربية الفصحى فيها، فقال: "هجرت ربوع العلم، وخرجت دور الكتب، وصارت الديار مرتعا للجهل والجهال، وكادت تدرس معالم اللغة العربية الفصحى، وتطرفت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية، بل أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة التخاطب في العواصم مثل وهران والجزائر وقسنطينة وعنابة وغيرها".¹⁵

وممن دعم هذا الموقف "أبو القاسم سعد الله" قائلا: "وإذا الاستعمار قد أفاد بعض البلاد العربية حين نقل إليها المطبعة والصحف والمجالس العلمية ونحو ذلك، فإنه في الجزائر كان على عكس ذلك تماما إذ لم يأت لينشر حضارة وإنما جاء ليسلب أفكار الشعب ويزور تاريخه ويحطم كيانه ويستغل ثروته، وبذلك تعرضت شخصية الأدب التي ظلت متحفظة بمقوماتها وملامحها إلى هزات عنيفة كادت تفقدها تلك المقومات والملامح، لأنها لم تستطع أن تواجه الغزو الثقافي بنفس العناد الذي جاء به الاحتلال في عنفوانه وانتقامه، ولم

تستطع أن تطور ذاتها بالطريقة التي يفترضها تخطيط العدو وبرامجه في الهدم والتسلط وإزالة المعالم القومية.¹⁶

وعموما يبقى الاستعمار الفرنسي السبب الرئيس وراء تباطؤ النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر، لأنه سبب تباطؤا في سير الحركة الأدبية شعرها ونثرها، مؤديا بذلك إلى تشتت كل الجهود العقلية المنتجة، فتشرد الأدباء والشعراء الوطنيون، واندمج بعضهم في حركة المقاومة التي أعلنها الشعب فترة طويلة ضد الغزاة، وهذا ما جعل "سعد الله" متعجبا عن حالة الأدب في تلك الفترة قائلا: "(...) وما أبعد الأدب في ذلك الزمان عن أن يدخل معركة سياسية، أو أن يجسم روحا قومية، أو أن يحفز إلى مستقبل وطني فيه عزة وكرامة، وفيه حرية واستقلال، لذلك ساد الركود وجمود حركة الأدب، وكسدت سوق الإنتاج حقبة طويلة، وكأن الأدب أصبح ينتظر عهدا من الاستقرار والهدوء (...)."¹⁷

2.2.2 نشأة الأدب الجزائري الحديث:

إن مسألة نهضة أو نشأة الأدب الجزائري ما زالت محل خلاف بين عدد كبير من الباحثين والدارسين، إذ إن الآراء فيهما تعددت ولربما ذلك راجع إلى عامل تعدد المشارب.

يورد "محمد مهناوي" رأيين مختلفين:

أولهما: رأي لصاحب كتاب "أعيان البيان" الأستاذ "حسن السندوبي" الذي يجعل "الأمير عبد القادر" (1807-1883) يقف على عتبة الأدب العربي الحديث في الجزائر قائلا: "فبطل الجزائر، وإن كان من أرباب السيف، فقد كان أخا للقلم، لا يغمد أحدهما حتى يجرد صاحبه، فيبرى بالأول الرؤوس والهام، ويبرئ بالثاني النفوس من سقام الأوهام، ومثله في أدب الأمراء كمثّل سيف الدولة بن حمدان (932-967م) غير أنه كان أوفر ذماما، أوفى عهدا وميثاقا من ممدوح المتنبّي (915-965م). ويستشف من خلال خطبه وكتاباتة (...)."¹⁸ ومن الذين أكدوا هذا الرأي الأول الدكتور "صالح خرفي" مؤكدا "جدارة الأمير بأن يكون بداية نهضة أدبية في الجزائر، وإن لم يكن بأسلوبه الخالي من رونق التجويد، فبمضمونه البطولي الذي يتفرد به في تلك الفترة."¹⁹

ثانئهما: رأي يقول بأن بداية الأدب العربي الحديث في الجزائر تعود إلى ظهور الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئاسة "عبد الحميد بن باديس" التي تأسست سنة 1931: يقول "محمد مهداوي": "(...) انطلاقا من هذا الربط، يتفق معظم الذين درسوا تطور الحركة الأدبية في الجزائر، على أن البداية الحقيقية لها، إنما ترتبط برباط وثيق ببداية الحركة الإصلاحية".²⁰

وممن دعم هذا الرأي "البشير الإبراهيمي" الذي يحدد أن بداية النهضة الحديثة في الجزائر إنما تعود إلى نهاية القرن العشرين مع الحركة الإصلاحية لأسباب كثيرة، يقول: "النهضة العربية في الجزائر بجميع فروعها، وفي مقدمتها نهضة الأدب العربي، وليدة الخمس الثاني من هذا القرن الميلادي-أي القرن 20م-، وقد سبقتها إرهابات كلها لم تسبق ابتداء هذا القرن، وسبقها كذلك تقدم ملحوظ في عربية القواعد، اضطلع به نفر استطاعوا بوسائلهم الخاصة أن ينقلوا من الحواجز التي وضعها الاستعمار الفرنسي عن قصد في سبيل التعليم العربي، فنشرت طائفة قليلة منهم إلى مصر ورجعت بزازد القواعد العربية وسعت به مداها في ذلك القطر العربي في جميع مقوماته ومنها اللسان العربي، ونشرت طائفة أخرى كثيرة العدد إلى جامع الزيتونة بتونس، وأخذت العلوم العربية (...) حمل أولئك نفر من مصر ومن تونس إلى الجزائر قبسا خافتا من الأدب العربي ولكنه كان كافيا في تحريك القرائح والأذهان (...) وعرفت الجزائر شعر شوقي ومطران والرصافي، وما انتهت الحرب العالمية الأولى حتى كانت المؤثرات الواردة قد فعلت فعلها في نفوس الناشئة التي هي طلائع النهضة الأدبية، وشعرت الجزائر بعروبيتها الأصلية التي كانت كامنة كالنار في الحجر، والتمست القائد الملهم الذي ينفخ من روحه القوية في تلك البذرة لتخرج شطأها فتورق فتزهر أو تثمر، فوجدته مهياً في شخص الأستاذ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، فاضطلع بقيادة تلك النهضة إلى أن أصبحت كامنة في الأدب والعلم والسياسة (...) وبدأت النهضة الأدبية تسابق الإصلاح الديني وتغديه (...)".²¹

ولم ينس "مخلوف عامر" الانتصار إلى هذا الرأي الثاني معتبرا بأن جمعية العلماء المسلمين هي التي يعود إليها الفضل في ظهور الأدب العربي الحديث في الجزائر، حيث يقول في الصدد نفسه: "لقد ارتبطت الحركة الأدبية في الجزائر بالخطاب السياسي الاجتماعي منذ العشرينيات على الأقل. فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت حركة بعث وإحياء للأصول، وعملت على توظيف كل الأدوات المتاحة بما فيها اللغة العربية وآدابها لخدمة القيم التي أنشئت من أجلها (...)"²².

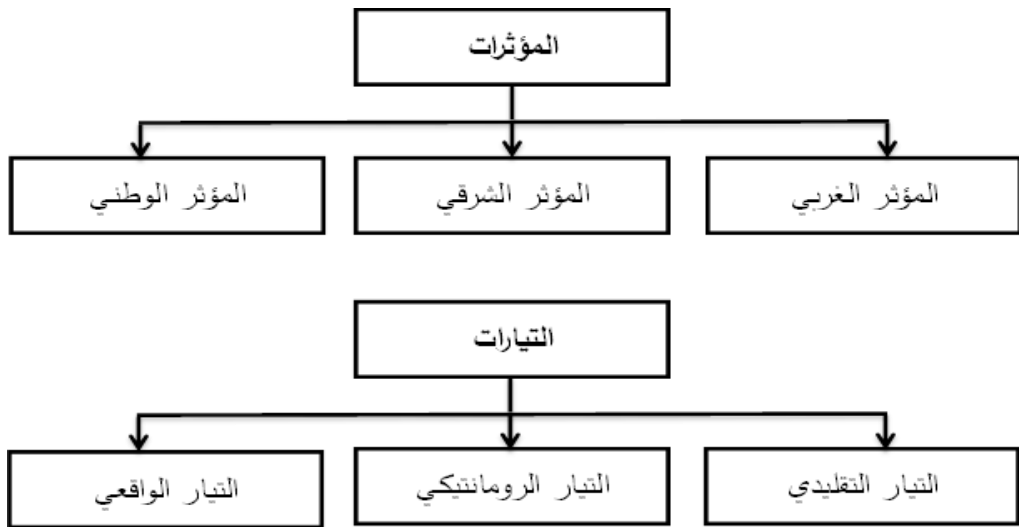
وممن تحدثوا عن نهضة النهضة العربية في الأدب الجزائري "عمر بن قينة الذي يؤكد قائلا: "إن أصول الحداثة في الأدب الجزائري ترجع إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر حين كان ارتباط الحركة الأدبية في المغرب العربي بالمشرق قائما، وقد بدأت النهضة في الوطن العربي، عموما باستلهاام التراث العربي المشترك في عصور ازدهاره الأولى، منطلقة من إحياء أمهات الكتب، في هذا التراث والاستفادة من عناصر القوة فيه (...)" وإذا كان من رواد الحركة الأدبية الحديثة في الشرق العربي، محمود سامي البارودي (1838-1904م) فإن عبد القادر الجزائري يعتبر من روادها في المغرب عموما، وفي الجزائر خصوصا (...)" فالأمير عبد القادر من جيل النهضة الحديثة في الوطن العربي، مسك بزعامة السيف وزعامة الشعر (...)"²³.

3. المؤثرات والتيارات والعوامل التي أسهمت في تشكيل النهضة والنشأة الأدبية

الحديث في الجزائر:

1.3. المؤثرات والتيارات:

تحدث الأستاذ "أبو القاسم سعد الله" على المؤثرات والتيارات التي أسهمت في ظهور الحركة الأدبية في العصر الحديث بالجزائر، حيث جمع بينها في ستة عناصر أخذ كل واحد منهما ثلاثة عناصر، جاءت على النحو الآتي:



1.1.3. المؤثرات:

*المؤثر الغربي: لعله أول المؤثرات في ظهور الحركة الأدبية بالجزائر، وذلك لاتصال الجزائر بفرنسا من جوانب عدة سياسيا واقتصاديا وحضاريا وفكريا وغيرها منذ دخولها إلى أرض الجزائر عام 1830م، حيث استطاع الاحتلال أن يسيطر على مقاليد النواحي المادية في الشعب ويوجهها لخدمته، ولكنه لم ينجح في الاستلاء على التقاليد الفكرية والثقافية إلا بعد زمن طويل، نظرا للأطماع السياسية والإغراءات وذلك منذ الحرب العالمية الأولى، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية ظهرت طائفة من المفكرين والأدباء كانت نتيجة لمحاربة الطائفة الأولى التي أغريت حيث كانت تجربتهم جزائرية ولكن وسائلهم واتجاهاتهم كلها غربية، وهذا المؤثر خفت حدته منذ قيام الثورة المباركة.²⁴

*المؤثر الشرقي: ويعنى به "اقتداء الشعب الجزائري بما يجده في الشرق العربي من أفكار واتجاهات، وما يحدث فيه من هزات قومية سواء أكان عمادها الماضي ومجده أم الحاضر في قلقه وتحفزه، وقد كان الشرق غنيا بالتجارب العقلية والثورية منذ النصف الثاني من القرن الماضي –أي القرن 19م-، تجلت هذه التجارب في علاقته مع الأتراك ومحاولته التخلص من حكم القرون الوسطى(...). فكانت كل خطوة تحريرية، أو دعوة إصلاحية، أو ثورة أدبية يصل

صداها بسرعة مذهلة إلى الجزائر، وتتفاعل مع الجيل الذي يستقبلها مرحبا مستفيدا من خبرتها وحرارتها، وهكذا كان الشرق العربي مؤثرا حيويا في اتجاه الأدب الجزائري (...).²⁵

*المؤثر الوطني: هو "مجموعة الأحداث الكبيرة التي ظهرت في الجزائر متخذة لها من السياسة عنوانا، ومن الوطنية شعارا، ومستهدفة جمع الشعب تحت راية واحدة، زاحفة به نحو تحقيق آماله في الاستقلال والحرية، والواقع أن هذا المؤثر قد تأخر طويلا عن مواعده رغم الحاجة إليه (...). ومن ثم يمكن القول بأن الحركة الوطنية قد تأثرت في الأدب في جميع مراحلها، غير أن هذا التأثير اتخذ شكل التأييد المطلق وأغنى الأدب بتجارب سياسية في بعض الأحيان، واتخذ مرة أخرى شكل المعارضة والدعوة إلى مفاهيم جديدة تحقق للشعب حياة أكمل وأوفر كرامة من حياته في ظل الاحتلال."

2.1.3. التيارات:

*التيار التقليدي: يواصل "سعد الله" قائلا بخصوص هذا التيار: "لم يظهر هذا التيار جديدا في الوسط الأدبي، ولكنه كان استمرارا للحركة القديمة شعرا ونثرا، وكان عماد هذا التيار المحافظة على عماد الشعر القديم، والاحتفاظ بخصائص القصيدة العربية الموروثة دون تطوير وتجديد، فالقافية واحدة، والوزن واحد، والمعاني ساذجة مقلدة، والموضوعات لا تخرج عن الرثاء والمدح، والزهد والإرشاد، والأسلوب مهلهل، حائل الألفاظ، بارد الصور (...). أما في النثر كان عماد هذا التيار التقليدي السجع وتطبيق ألوان البديع على الرسالة أو المقامة أو التأليف. بل حتى المقالات الصحفية، والخطب المنبرية (...)."²⁶

*التيار الرومانتيكي: لم يكن هذا التيار الذي ظهر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة إلا رد الفعل للوضع السياسي الذي كانت تعاني منه البلاد في ظل الاستعمار وتدخل فرنسا في كل شيء، وكذا عزل الأدباء عن الحياة العامة، بحيث انقسم هذا التيار على نوعين؛ أحدهما: وصول مبادئ الرومانتيكية من فرنسا إلى الجزائر وتأثر الجيل الدارس للثقافة الفرنسية بتلك المبادئ وما تحمله من بذور ثورية، وثانيهما: هو تأثر أدباء هذا التيار بكل من مدرسة

المهجر وجماعة أبولو الرومانتيكيتين، فالأولى لم تكن إلا عربية مجددة بشيء من السماحة والحرية، ولم تكن الثانية إلا عربية متطورة في شيء من اليسر والترخيص.²⁷

*التيار الواقعي: "جاء هذا التيار كنتيجة لتطور الحركة الوطنية في الجزائر، فبعد تبلور المفاهيم القومية في أذهان الناس، ووضوح المبادئ السلمية أو الثورية التي اعتمدت عليها الحركة في خط سيرها المتعرج الطويل(...) والحق أنه كان لهذا التيار فرعان: فرع عربي اللغة واضح الأهداف، شديد الارتباط بالشعب، كثير الاعتماد على الجمع بين القديم والحديث، وقد تمثل هذا في الشعر العربي الذي نظم بين 1930-1954، وفرع آخر فرنسي اللسان، غامض الأهداف، كثير الاعتماد على الحديث، وتمثل في الرواية والقصة وبعض الأشعار المستمدة من صميم الحياة الشعبية، وكان ظهوره بين 1946-1954 (...)".²⁸

2.3. العوامل:

لقد أسهمت في النهضة الأدبية في الجزائر ونشأتها عدة عوامل منها ما هو محلي ومنها ما هو خارجي أخذت في البروز بالأرض الطاهرة حين بدأ يسري في نفوس الجزائريين النهوض بالقيم الوطنية وذلك منذ أواخر القرن التاسع عشر، يقول في هذا الشأن "عمر بن قينة": " (...) أواخر القرن التاسع عشر بدأ يسري في المجتمع انتعاش واعد باستئناف النهوض بعد الانكسار بفعل عوامل مختلفة داخلية وخارجية، فمن العوامل الخارجية إدراك الجزائريين الذين كانوا يترددون على أوروبا وفرنسا خصوصا الفروق الظالمة بين سياسة (فرنسا) في وطنها، وسياستها في (الجزائر) (...)".²⁹

وعلى الرغم من اختلاف وتعدد العوامل الداخلية والخارجية التي أسهمت في بث الوعي للنهوض بالأدب ونشأته بالجزائر، فإن انتشار الصحف* بالجزائر يبقى أهم شيء ساعد على بث الوعي للنهوض سواءً أكانت صحفا محلية أم خارجية، وعن هذه الأخيرة قال "عمر بن قينة": " (...) كما لعبت الصلة بالشرق العربي دورا بارزا بفضل الصحف والنشريات التي كانت تسرب إلى التراب الوطني فتدعو إلى اليقظة والنهوض عربيا، ومن بينها صحيفة (المؤيد) التي يقول عنها (سعد الدين بن أبي شنب) إنها ابتداء من سنة 1307هـ/1889م أخذت تدعو "إلى

اليقظة وإصلاح المفاصل المتفشية بين العرب. وحب الحرية والثورة على الاستبداد الاستعماري، فكانت الصحف والمجلات تأتهم [الجزائريين] مباشرة من مصر، أو تصل إليهم عن طريق غير مباشر أي طريق تونس(...) وكان كل عدد من تلك النشرات يزيدهم شجاعة وإيماناً بمستقبلهم العربي الإسلامي (...).³⁰

ونظراً لأهمية انتشار الصحف بالجزائر، فإننا سنتحدث قليلاً عنها ولو بالشيء القليل عبر مجموعة من المعلومات التي اقتبسناها من الجزء الثامن من كتاب "تاريخ الجزائر الثقافي" لـ "أبي القاسم سعد الله" عن الصحافة وانتشارها بالجزائر منذ أيام الاحتلال.

من المشاريع الفرنسية خلال القرن 19م في الجزائر لهدم كيائها هو ظهور الصحف، لذلك فإنه عندما تذكر الصحف خلال هذا القرن فإن الذهن لا بد أن ينصرف إلى الجريدة الفرنسية "المبشر أو المبصر" الصادرة باللغتين العربية والفرنسية، والتي دامت ثمانين سنة وذلك بين سنتي 1847-1927، وقد كانت صورة للتناقضات التي عرفت الإدارة الفرنسية نحو الجزائريين، إذ ظهر على صفحاتها عدد من الأسماء طغى على إنتاجهم الأدبي المسحة الأدبية ومثانة الأسلوب والكتابة الخاصة، منهم: "حسن بن بريهمات، ابن علي الشريف، سليمان الصيام، محمود بن الشيخ علي"، حيث ألف هذا الأخير رسالة مهمة في البلاغة، كما كتب عدة مقالات منها واحدة سنة 1867 بعنوان "نصيحة عمومية لأهل الحضر والبادية" ونشرها في صفحة كاملة من الجريدة بخط رقيق، وامتازت بالطول واستعمال الشواهد من القرآن والأحاديث بأسلوب بسيط دون سجع.

ولوعي الجزائريين بأن ظهور الصحافة تعد عاملاً من العوامل الرئيسية التي تسهم في بث الوعي لدى الشعب ومحاربة الظلام، حاولوا إنشاء صحف خاصة بهم مطلع القرن 20م، لكن الاحتلال كان لها بالمرصاد وأوقفها لأنها لم تكن تخدم صالحه مثلما خدمته "المبشر"، ومن الصحف التي ظهرت خلال هذا القرن "الفاروق" لصاحبها "عمر بن قدور" سنة 1913، حيث امتاز أسلوبه بالأسلوب الصحفي الجذاب مع تناوله لموضوعات مهمة وحية وسط

المجتمع الجزائري، متأثراً بأسلوب المدرسة النثرية الجديدة في المشرق حين كانت الجرائد المشرقية تصل إلى الجزائر مثل: اللواء والمؤيد ومجلة المنار.³¹

ولم يكد ينتهي لهيب الحرب العالمية الأولى حتى ظهر عدد من الصحف منها: النجاح والمنتقد والإقدام والشهاب والبصائر وجرائد أبي اليقظان، فاحتضنت عددا من كتاب المقالة ك: "العقبي والبشير الإبراهيمي وأبو يعلى الزواوي" الذين امتلأت بكتاباتهم أعمدة الصحف.

ساعد انتشار الصحافة على ظهور فن المقالة، لذلك أجمع عدد من الباحثين على أن هذا الفن ظهر مع مرحلة الإصلاح في الجزائر حين انتشرت الصحف وأعربت عن استقلالها من الاحتلال الذي كان يتحكم في سابقاتها ويوجهها لخدمته، وممن كان لهم الفضل في تطوير المقالة الصحفية بالمساهمة الفنية في جريدتي "الشهاب ثم البصائر" "أحمد توفيق المدني"، وأشهر من كتب في المقالة الدينية "أحمد سحنون"، وأحسن من عبر عن المقالة الاجتماعية "باعزيز بن عمر"، وأبرز من يمثل الإصلاح بالمعنى الدقيق من كل الجوانب رئيس الجمعية "عبد الحميد بن باديس" الذي امتازت مقالاته بالعمق والقصر والدلالة؛ وكل هؤلاء لجأوا إلى إصدار الصحف للتعبير عن أفكارهم.

ومع نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن الماضي ظهرت الأحزاب السياسية، وأهمها: "حزب نجم شمال إفريقيا وفدرالية المسلمين الجزائريين مع ابن التهامي وأنصار الأمير خالد"، بحيث كان لكل حزب من هذه الأحزاب صحف خاصة بها لاختلاف الرؤى وتباينها، وهذا ما دفع بالمقالة الصحفية إلى التطور، بحيث لم يبلغ فن أدبي التطور مثلما بلغه فن المقالة للتنافس المحتدم بين الكتاب للوصول إلى أحسن مقال، وهذا ما أدى إلى ظهور أساليب جديدة وخصائص مميزة اصطبغت بها المقالة وبخاصة المقالة الأدبية التي أبدع فيها "رمضان حمود" الذي عاش عمرا قصيرا الثائر على القديم ودعائه أو من سماهم بـ: "عبيد التقليد وأعداء الاختراع"، وعلى مذهبه سار "يحيى بوجناح (الملقب بالفرقد)" الذي قال عنه "محمد العابد الجلاي": "إنه كان دون العشرين، ومع ذلك فإن مقالاته تدل على

أنه قد عاش الدهر، وشهد على أن مقالاته كانت تمتاز بالغيرة الدينية وحصافة العقل والذكاء والوطنية وعزة النفس (...)."، وقد عرفت هذه المقالة تطورا آخر على يد ثلاثة أعلام هم: "حمزة بوكوشة، وأحمد رضا حوحو، والبشير الإبراهيمي"، بحيث كان الأول متأثرا بالحركة الرومانتيكية وكان مرتبطا بالحركة الإصلاحية وقد أنشأ جريدة باسم "المغرب العربي" في وهران، وأما الثاني الذي هاجر إلى الحجاز في الثلاثينيات ولكن لم يجعله ذلك ينقطع عن الحركة الأدبية بالجزائر فكتب في مجلة "المهل" بالحجاز، وأما الأخير فقد تناول في إنتاجاته موضوعات تتعلق بالثورة ودعوة الشعب ليلتف حولها، ومخاطبة العرب والمسلمين في المشرق لمساندة الثورة، فكانت بعض مقالاته من النشر المرسل الذي لا يكلف فيه، وأسلوبه أسلوب خطابي وأدبي يهز ضمير المتلقي بألفاظ مشحونة بالمعاني.³²

4. خاتمة:

من خلال ما سبق، يمكن القول إن نشأة وتطور الأدب الجزائري الحديث لم تكن مفصولة عن نظيرتها في الوطن العربي، حيث أسهمت في ظهوره وتشكله مجموعة من الأشياء ولعل أهمها الاستدمار الفرنسي الذي أراد القضاء على الأخضر واليابس في الجزائر؛ ومن جملة نتائج المتوصل إليها في هذا البحث ما يلي:

- يعد الأدب الجزائري الحديث جزءا مهما من الأدب العربي الحديث؛ فهو لم يختلف عن الآداب العربية الأخرى من الناحية الأسلوبية والتعبيرية والتصويرية، ولكنه اختلف عنها في نقل الموضوعات والقضايا التي طرحها، لأن هموم الأديب تختلف من أديب إلى آخر.

- مر الأدب الجزائري بنفس المراحل التي شهدتها مختلف الآداب العربية منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا.

- من الأسباب التي أدت إلى تأخر النهضة الأدبية في الجزائر عن مثيلاتها في بعض الدول العربية يكمن في أن الجزائر عانت ويلات الحكم الظالم من قبل العثمانيين وعلى وجه الخصوص الأتراك، وأيضا الاستدمار الفرنسي الغاشم الذي سعى إلى تدمير الثقافة الجزائرية بأكملها وتبديلها بالفرنسية.

- لقد تضايرت الآراء بين عدد كبير من الباحثين والدارسين للأدب الجزائري في مسألة نهضته أو نشأته الفعلية بين من يرى بأن فترة "الأمير عبد القادر" هي الفترة التي أدت إلى ظهوره، وبين من يرى أن المرحلة الإصلاحية هي التي تقف على عتبة ظهوره إلى الواجهة.
- لقد أسهمت في تشكل الأدب العربي الحديث في الجزائر مجموعة من التيارات والمؤثرات والتيارات والعوامل منها ما هو محلي محض ومنها ما هو خارجي دخيل.

5. الهوامش والإحالات:

- ¹ محمد مهداوي، هموم الكتابة في الأدب العربي الحديث في الجزائر أيام الاحتلال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2017، ص 11.
- ² المرجع نفسه، ص 03.
- ³ كريمة محاوي، مطبوعة بيداغوجية لمقياس أدب جزائري حديث ومعاصر، قسم اللغة العربية وآدابها، المدرسة العليا للأساتذة، بشار، 2019-2020، ص 10.
- ⁴ محمد مهداوي، هموم الكتابة في الأدب العربي الحديث في الجزائر أيام الاحتلال، المرجع السابق، ص 26.
- ⁵ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، عالم المعرفة، الجزائر، دط، 2011، ص 21.
- ⁶ جبران مسعود، الرائد، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 7، 1992، ص 824.
- ⁷ نجم الدين الحاج عبد الصفا، الشعر العربي والاتجاهات الجديدة في عصر النهضة الأدبية، نادي الأدب، ع: 02، نوفمبر 2014، ص 2.
- ⁸ مسعود بن عبد العطوي، الأدب العربي الحديث، مكتبة عبد الملك فهد الوطنية، تبوك، دط، 1430هـ، ص 17-18.
- ⁹ المرجع نفسه، ص 17-18-19.
- ¹⁰ وليم الخازن، تبشير النهضة الأدبية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 1، 1992، ص 11-12.
- ¹¹ محمد مهداوي، هموم الكتابة في الأدب العربي الحديث في الجزائر أيام الاحتلال، المرجع السابق، من ص 12 إلى ص 14.
- ¹² نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار الأصاله للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2009، ص 40.
- ¹³ المرجع نفسه، ص 40-41.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص 43.
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص 43.
- ¹⁶ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المرجع السابق، ص 22.
- ¹⁷ المرجع نفسه، ص 21-22.
- ¹⁸ محمد مهداوي، هموم الكتابة في الأدب العربي الحديث في الجزائر أيام الاحتلال، المرجع السابق، ص 23.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص 26.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص 27.

- ²¹ أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، عالم المعرفة، الجزائر، دط، 2011، ص ط-ي.
- ²² مخلوف عامر، مراجعات في الأدب الجزائري، دار التنوير، الجزائر، دط، 2013، ص 92.
- ²³ عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث تاريخاً.. وأنواعاً، وقضايا.. وأعلاماً، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، 2017، ص 15 وص 21.
- ²⁴ ينظر: أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المرجع السابق، ص 23-24.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص 24-25.
- ²⁶ المرجع نفسه، ص 26-27.
- ²⁷ ينظر: المرجع نفسه، ص 27-28.
- ²⁸ المرجع نفسه، ص 28-29.
- ²⁹ عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث تاريخاً.. وأنواعاً، وقضايا.. وأعلاماً، المرجع السابق، ص 41.
- * يقول "محمد صالح الجابري" في كتابه "الأدب الجزائري المعاصر" بأن: "السلطات الاستعمارية لم تكن تخشى قصائد الشعر الثورية بقدر ما كانت تخشى جريدة وطنية تجسم الجزائر معنى واسماً، وتحكي في النفوس ما دأبت السلطة على قتله باطراد والشعور بالكيان والجذور، فالجريدة هي السلاح الوحيد الذي كان بإمكان الجزائري أن يشرعه في وجه السلطة، وهي المجال الوحيد الذي كان بإمكانه أن يذيع أشعار الشعراء ومقالات الكتاب بين الناس (...)." محمد صالح الجابري، الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ط1، 1426هـ/2005م، ص 40-41.
- ³⁰ المرجع نفسه، ص 41.
- ** تسمية المبصر جاءت في كتاب "هموم الكتابة الأدب العربي في الجزائر أيام الاحتلال" لـ "محمد مهداوي". * محمد مهداوي، هموم الكتابة في الأدب العربي الحديث في الجزائر أيام الاحتلال، المرجع السابق، ص 15.
- ³¹ ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، 68/8-69.
- ³² ينظر: المرجع نفسه، ج8، من ص 69 إلى ص 74.